

بسم الله الرحمن الرحيم

نهاوند "فتح الفتوح"

الشيخ/ ناصر الأحمد

إن الحمد لله..

أما بعد: انتهت معركة القادسية بانتصاراتها وبطولاتها الرائعة ونزل سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قصر كسرى وهو يقرأ قول الله تعالى: **{كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيها فَآكِهِينَ * كَذَلِكِ وَأَوْرَثناها قَوْمًا آخِرِينَ}** [سورة الدخان] (٢٥-٢٨).

هربت الفرس وتجمعت في جلولاء وجعلوا حول المدينة خندقاً واجتمعوا متكاتفين وقائدهم "مهران" يوحد بينهم ويلمّ شعثهم وينفخ فيهم روح الثبات، ومما زاد الأمر تعقيداً أن الفرس طرحوا حول الخندق حسك الحديد إلا طرقاتاً يعرفونها، فكتب سعد بذلك إلى القائد الأعلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فكتب عمر إلى سعد: "أن سرّح هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو".

سار هاشم وحاصر الفرس وأحاط بخندقهم، وزاحفهم مرّات عديدة ولم يتحقق النصر وخشي المسلمون أن يقال عنهم: أن حب الدنيا أخرهم عن الشهادة أو النصر، فصمم الجميع على الهجوم على خنادق الفرس، وكان البطل هنا هو بطل القادسية، القعقاع بن عمرو، فتقدم وتقدم الناس وراءه حتى انتهوا إلى باب الخندق، فإذا بالقعقاع قد أخذ به وافتتحه وأخذ الفرس في الهزيمة فقتل منهم خلق كثير، فسميت جلولاء بما جلّلها من قتلاهم فهي جلولاء الوقية.

كتب عمر إلى سعد: "إن فتح الله عليكم جلولاء فسرّح القعقاع في أثر القوم حتى ينزل "بحلوان" فيكون رداءً للمسلمين ويحمي لكم سواد العراق".

وبالفعل فقد أقام هاشم في جلولاء وسار القعقاع في أثر المنهزمين فأدرك "مهران" أثناء الطريق فقتله، فبلغ "يزدجرد" هزيمة جنده في جلولاء ومقتل "مهران" فخرج من حلوان هارباً إلى مدينة "الرّي" ودخل القعقاع حلوان.

استمر يزيدجرد يثير أهل فارس يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم فتحركوا ثانية وتكاتبوا، فكتب عمر إلى سعد: أن ابعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعجل.

سار النعمان في أهل الكوفة، فلما سمع الهرمزان بقدومه طمع أن يتغلب عليه وينصر أهل فارس لكن النصر كان من الله لعبده الصالح النعمان بن مقرن، فهرب الهرمزان إلى مدينة "تُسْتَر".

لحق النعمان الفرس حتى تُسْتَر وحاصرها أشهراً وطال التزاحف حتى بلغ ثمانين زحفاً لم يحقق به المسلمون ولا الفرس نصراً، وقد تفانى الصحابة في القتال لفتح هذه المدينة فقتل البراء بن مالك لوحده أثناء الحصار مائة مبارز من الفرس، وقتل مجزأة بن ثور مثل ذلك، وربيعي بن عامر مثل ذلك، ولما كان آخر زحف

واشتد القتال تقدم نفر من المسلمين إلى البراء بن مالك وقالوا: يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم لنا! فقال البراء: "اللهم اهزمهم لنا واستشهدني".

إنه البراء بن مالك، من عباد الله الصالحين، كان إذا أقسم على الله أبرّه.

كان - رضي الله عنه - حسن الصوت يحدو بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في أسفاره، ومما عُرف عنه - وهو شرف له - قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: "لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين فإنه مهلكة من المهالك".

نطق البراء بهذه الكلمات فألهب الحماس وأصبح الجميع يشتاقون إلى الشهادة كما اشتاق هو إليها، فتقدمت جموع المسلمين ترمي بأنفسها إلى الشهادة حتى حصر المسلمون الفرس في المدينة وصاروا في ضيقٍ وحرَج.

وبينما هم كذلك خرج إلى النعمان رجل فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل يُؤتون منه، فأمنّه النعمان فقال الرجل: انهذوا من قبل مخرج الماء فإنكم ستفتحونها، فندب النعمان للأمر رجالاً هم كتائب الموت، فاستطاعوا فتح أبواب المدينة بعد قتال شديد داخلها، حتى هرب الهرمزان وحُوصر في القلعة وسط المدينة، فأقدم عليه الرجال الذين يبحثون عن الموت ولا يجدونه إلا في سيوف أعدائهم لكنه يفر منهم ويحل بالأعداء. وصلت كتائب الموت -الفدائيون- إلى الهرمزان فقال لهم: ما شئتم! قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم، ومعني في جعبتي مائة نشابة، ووالله ما تصلون إليّ ما دام معي نشابة، قالوا: فتريد ماذا؟ قال: أن أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي ما يشاء.

وهذا جُبِن من الهرمزان، إذ المفروض أن يقاتل حتى يُقتل كما قُتل أصحابه، لكنه أراد أن يطيل حياته بحجة أنه يريد أن يُحكّم عمر.

رضوا بذلك، فرمى الهرمزان قوسه وأمكنهم من نفسه فشده وثاقاً.

أخذ أنس بن مالك والأحنف بن قيس الهرمزان إلى المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب، ووضعوا على رأسه تاجاً مكللاً بالياقوت حتى يراه عمر والمسلمون في هيئته، دخلوا المدينة وكان عمر نائماً في ميمنة المسجد متوسداً برُنسه، رأى الهرمزان هذا الإنسان الوحيد نائماً في المسجد فقال: أين عمر؟ قالوا: هو ذا. فقال: أين حرسه وحجّابه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب. قال: فينبغي له أن يكون نبياً. قالوا: بل يعمل عمل الأنبياء.

كثر الناس وزادت الجلبة، فاستيقظ عمر واستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان وقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم، فتأمله وتأمل ما عليه من الثياب ثم قال: "أعوذ بالله من الناس وأستعين بالله، الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة".

قال الوفد لعمر: هذا ملكُ الأهواز فكلمه، قال عمر: لا، حتى لا يبقى عليه من حلّيته شيء. فرمى عنه كل شيء عليه إلا شيئاً يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً. وبعدها كلمه عمر فقال له: ما عذرك وما حجتك في انتفاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك. قال عمر: لا تخف ذلك. طلب الهرمزان ماءً، فأتي في قده غليظ. فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب بمثل هذا. فأتي الماء في إناء يرضاه، فجعلت يده ترجف

وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء. فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه. فأراق الهرمزان الماء. فقال عمر: أعيديا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش. فقال الهرمزان: لا حاجة لي في الماء، وإنما أردت أن أستأمن به. فقال له عمر: إني قاتلك. قال: قد أمتنتني. فقال عمر: كذبت. فقال أنس: صدق يا أمير المؤمنين قد أمتنته، لأنك قلت: لا بأس عليك حتى تشربه. فأقبل عمر على الهرمزان وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا لمسلم. فأسلم الهرمزان.

والذي يظهر أنه أسلم نفاقاً؛ لأنه قد تأمر فيما بعد مع أبو لؤلؤة المجوسي لقتل عمر، ونفذا الخطة، فقتله عبدالله بن عمر سنة ٢٤هـ.

وفي هذه الأثناء وصل إلى عمر كتاب باجتماع جيش كثيف من الفرس في نهاوند.

فقد كاتب يزيدجرد أهل السند وخراسان وحلوان ليجتمعوا فيوجهوا ضربة حاسمة لجيش الإسلام، وبالفعل فقد تحرك سكان هذه المدن والمناطق وتكاثبوا واجتمعوا في نهاوند في جمع يبلغ مائة وخمسين ألفاً، غادر سعد بن أبي وقاص الكوفة قاصداً عاصمة الخلافة؛ ليخبر عمر بخطر الموقف شفاهاً.

قام عمر على المنبر خطيباً بعد أن نودي الصلاة جامعة وأخبر الناس بما يجري في جبهة الشرق، وقال: هذا يوم له ما بعده من الأيام، وطلب مشورتهم، فتكلم رجال من أهل الرأي من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم قال عمر: أشيروا عليّ برجل أوليه ذلك الثغر غداً.

فقالوا: أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة. قال: أشيروا عليّ به واجعلوه عراقياً. قالوا: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق، وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم. فقال: "أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكوننّ أول الأُسنة إذا لقيها غداً، فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ فقال: النعمان بن مقرن المزني. فقالوا: هو لها".

لقد عرف الفاروق من يختار لنهاوند، اختار لها النعمان، سليل بيت ابن مقرن، قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: "إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن". وكفى بها شهادة. للنعمان تسعة أخوة كلهم أصحاب فضل ولهم صحبة وهم: "سنان" وله ذكر في الغزوات مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، و"سويد" قائد من قواد الفتح، فتح طبرستان وجرجان، و"عبدالله" كان على مسيرة الصديق حين خرج من المدينة لقتال المرتدين، و"عبدالرحمن" كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو غيره النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى عبدالرحمن، و"عقيل" و"معقل" من قادة الفتح، و"مرضی" كان يحسن الكتابة فقد كتب وثيقة الصلح مع أهل الباب، و"نعيم" كان له دور بارز في نهاوند، والتاسع "ضرار" أمره خالد حين حصار الحيرة. كلهم صحب النبي - صلى الله عليه وسلم - وليس ذلك لأحد من العرب غيرهم، نزلت بحقهم الآية الكريمة: **{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}** [سورة التوبة: ٩٩].

كتب عمر إلى النعمان: "بسم الله الرحمن الرحيم: من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرأ فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضة فإن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك".

استلم النعمان كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فسار - رضي الله عنه - ومعه وجوه أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان منهم: حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر، وجريير بن عبدالله البجلي، والمغيرة بن شعبة وعمر بن معد يكرب، وطلحة بن خويلد، وغيرهم ووصل إلى نهاوند.

اجتمع المسلمون حول نهاوند واجتمع الفرس فيها وأميرهم "الفيروزان". أرسل أحد قواد الفرس واسمه "بندار" إلى جيش المسلمين: أن أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه، فذهب إليهم داهية المسلمين "المغيرة بن شعبة" بمنظر رهيب وشعر مسترسل طويل، فلما وصل إليهم استشار "بندار" أصحابه بأي هيئة نأذن له؟ هل بشارتانا وملكتنا وفخامتنا؟ حتى نرهبهم بقوة ملكنا أم بالتقشف حتى يزهدوا بنا ولا يطمعوا في ملكنا؟ فأشاروا عليه: بل بأفضل ما يكون من الشارة والعدة، فتهيؤوا له بأفخر الأثاث والثياب.

دخل المغيرة، فقرّبوا إلى جسمه ووجهه الحراب والنيازك يلتصق منها البصر وجند "بندار" حوله كي يزيدوا المنظر رهبة، أما "بندار" فعلى سرير من الذهب وعلى رأسه تاج نفيس.

قال المغيرة: فمضيت فصاروا يدفعونني ويزجرونني. فقلت: الرسل لا يفعل بهم هذا. فقالوا: إنما أنت كلب. يقول المغيرة: فقلت: لأننا أشرف في قومي من هذا في قومه - وأشار إلى بندار -.

فانتهره الجند وقالوا: اجلس. فجلس فتكلم "بندار" وترجم للمغيرة، ومما قاله: إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير، وأطول الناس جوعاً، وأشقى الناس شقاءً، وأقذر الناس قدراً، وأبعدهم داراً، وما منعتني أن أمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تتجسأ لجيفكم فإنكم أرجاس، فإن تذهبوا تركناكم، وإن تأتوا نريكم مصارعكم.

قال المغيرة: فحمدت الله وأثنت عليه ثم قلت: والله ما أخطأت من صفتنا شيئاً ولا من نعتنا، إن كنا لأبعد الناس داراً، وأشد الناس جوعاً، وأشقى الناس شقاءً، وأبعد الناس من كل خير، حتى بعث الله - عز وجل - إلينا رسوله - صلى الله عليه وسلم - فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة فوالله ما زلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر، حتى أتيناكم، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى تغلبكم على ما في أيديكم أو نُقتل بأرضكم، وإني أرى عليكم بزّةً وهيئة ما أرى من خلفي يذهبون حتى يصيبوها.

قال المغيرة: فقلت في نفسي: لو جمعت ثيابي فوثبت وثبة فقعدت مع هذا العلج "بندار" على سرير له لعله يتطير؟ قال: فوجدت غفلة فوثبت فإذا أنا معه على سرير، فصرخ "بندار" خذوه، فأخذته الجند وصاروا يطأونه بأرجلهم، فقال المغيرة: هكذا تفعلون بالرسول! فإننا لا نفعل هكذا ولا نفعل برسلكم هذا.

شعر "بندار" أن المغيرة بدأ يحطم من معنويات جنده، لأنه بدأ يُظهر عزّته الذي هدّبه بها الإسلام، وظهرت سوء أخلاقيات الفرس، فأراد أن يقطع هذه المناظرة فقال: إن شئتم قطعتم إلينا، وإن شئتم قطعنا إليكم.

فعاد المغيرة واستشار قائد الجيش النعمان، فقال النعمان: اعبروا..

يُذكرنا موقف المغيرة - رضي الله عنه - بالسفر في القادسية وأثرهم الكبير في نفوس الطرفين، كما يُذكرنا موقف "بندار" بموقف "رستم" إذ المنطق واحد عندما وصف العرب بالجوع والعريّ والبعد عن معتك الحياة وهذا صحيح ولكن قبل مجيء الإسلام، ولكن بعد بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وبعدما فتح أعظم جامعة في هذه الدنيا وهي مسجده - عليه الصلاة والسلام -، تغيّر الحال كثيراً، وصار الفارق

عظيماً، كان يأتي الإنسان الخام وهو بدوي فيدخل تلك الجامعة، مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ويتلقى تلك التربية على يد أعظم شخصية عرفتها البشرية، فإذا ببائع القماش أبي بكر، وراعي الجمال عمر، وجبال آخرون تخرجوا من ذلك المسجد يحملون شهادة الإسلام التي تعشق العلم وتحارب الجهل، تخرجوا وهم يحملون رسالة الإسلام القائمة على استعمال العقل والفكر ومحاربة الانهزامية وترك الأسباب بلا استعمال، تخرجوا يحملون روح الجهاد متوجّه بروح الاستشهاد.

كان من حيل الفرس في هذه المعركة أن طرحوا حسك الحديد حول المدينة، والحسك يشبه شوك السعدان، فبعث النعمان عيوناً للاستطلاع فساروا لا يعلمون بالحسك فلم يبرح الفرس مكانه فنزل صاحبه ونظر في يده فإذا في حافره حسكة فعاد إلى الجيش وأخبر النعمان أن سلاحاً جديداً استخدمه الفرس لم يُعهد سابقاً وهو نشر الحسك حول المدينة، وهو أشبه ما يكون بالألغام في عصرنا الحاضر، فقام النعمان يسأل أهل الرأي في جيشه، فكان الرأي أن ينتقل الجيش من هذا المكان كأنه هارب فيخرج الفرس في طلبهم، فانطلق النعمان، فخرج الفرس وكنسوا الحسك في طلب المسلمين وكان النعمان قد عبأ الكتائب ونظم الجيش وكان عدده ثلاثون ألفاً، وجعل على مقدمة الجيش نعيم بن مقرن، وعلى مجنبيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو.

ولما رأى النعمان جمعهم الكبير كبر فكبّر معه المسلمون فتزلزلت قلوب الفرس وحطت قواهم، وقد سمع الفرس هذه التكبيرة سابقاً في القادسية ويعلمون نتائجها وأثرها في نفوس من يرددها.

أنشب النعمان القتال يوم الأربعاء ودام على شكل مناوشات حادة إلى يوم الخميس والحرب بين الفريقين سجال وكان الفرس خلالها في الخنادق خشية المسلمون أن يطول الأمر فإنهم لم يعتادوا ذلك في لقاء العدو فربما كان علامة نقص في الإيمان أو شاهد على حب الدنيا، فتجمع أهل الرأي فكانهم هيئة أركان لأكبر قائد ولأظهر جيش.

فقال النعمان: ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شأؤوا فما الرأي. فكان الرأي ما أشار به طليحة أن يُبعث خيلاً مؤدية فيحذقوا بهم ثم يرموا لئيشبوا القتال ويُغضبوهم فإذا غضبوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج هرب المسلمون خدعة، فيخرج الفرس في أثرهم.

أمر النعمان القعقاع أن يُنشب القتال بعد أن رتب معه الخطة وهي أن يسحب جيش الفرس إلى كمين وهو عبارة عن مكان محاط بالجبال من ثلاث جهات، يسمى في مصطلح الحروب بعنق الزجاجة، يختبئ حوله المسلمون حتى يصل القعقاع بالفرس فينقض المسلمون عليهم وكان ذلك يوم الجمعة، فتقدم القعقاع وأنشب القتال فخرج الفرس من خنادقهم، فلما خرجوا نكص القعقاع بجنده حسب الخطة ثم نكص ثم نكص واغتتمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقال الفرس: هي هي - أي هي هزيمة المسلمين - فخرج الفرس ولم يبق منهم أحد في الخنادق إلا من يقوم على الأبواب، وجعلوا يتبعون المسلمين حتى انقطعوا عن حصنهم وخنادقهم وأمر النعمان الناس أن يلزموا الأرض ولا يقاثلوهم حتى يأذن لهم، ففعلوا واستتروا بالتروس من رمي الفرس، وأقبل الفرس على كتيبة القعقاع ومن معه وكانوا منئي فارس فقط قُتل منهم مائة وعشرين ولم يبق معه إلا ثمانون فارساً وصار الفرس يرمونهم حتى أثنوا فيهم الجراحات، وشكا بعض المسلمين إلى

بعض تأثراً بما أصاب القعقاع ومن معه، فقالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه! ألا ترى ما لقي الناس! يعني القعقاع ومن معه، فماذا تنتظر؟ ائذن للناس في قتالهم. فقال النعمان: رويداً. قالوا له مرات كثيرة ماذا تنتظر؟ فيجيب بمثل قوله: رويداً. وأوضح لهم أنه يرجو في المكث مثل الذي يرجون في الحث. فماذا كان ينتظر النعمان؟ كان ينتظر أحب الساعات إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك التي كان يلقي العدو فيها، وذلك عند الزوال حيث تفيؤ الأفياء وهبوب الرياح. وكذلك اكتمال الخطة بدخول كامل جيش الفرس عنق الزجاجة.

اقترب وقت الزوال، تلك الساعة التي ينتظرها النعمان، فركب فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية يذكرهم بالله ويحرضهم على عدوهم ويمنيهم الظفر ثم قال: "ما منعني من أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار، لم يعجل حتى تحضر الصلاة وتهب الرياح ويطيب القتال، فما منعني إلا ذلك". ثم قال: "إذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهياً من لم يكن تهيأً، فإذا كبرت الثانية فليشدّ الرجل إزاره وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً، فإن قُتلت فالأمير بعدي حذيفة بن اليمان، فإن قُتل فلان وعدّ سبعة آخرهم المغيرة بن شعبه.

وقف هذا القائد الكبير والفراس العظيم أمام جنده فكبر التكبيرة الأولى، ثم كبر التكبيرة الثانية، وقبل أن يكبر التكبيرة الثالثة قال كلمات خالدة خلود الزمن فقال: "اللهم اعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، أمّنوا يرحمكم الله". فبكى الناس لأن أميرهم مستجاب الدعوة فعرفوا أنه مقتول.

رجع النعمان إلى موقفه والناس ينتظرون التكبيرة الثالثة وهم سامعون مطيعون مستعدون للقتال، فكبر التكبيرة الثالثة، ودقت ساعة الإسلام وحانت ساعة الصفر، وانقضت راية الأمير القائد انقضاض العقاب، والنعمان معلّم يعرفه الناس بقلنسوته.

قال المغيرة بن شعبه بعدما رأى الزحف: "والله ما علمت من المسلمين أحداً يوماً يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر، فحملنا حملة واحدة، وثبتوا لنا، فما كنا نسمع إلا وقع الحديد حتى أصيب المسلمون بمصائب كبيرة، فلما رأوا صبرنا وأنا لا نبرح ساحة القتال انهزموا".

تقدم النعمان كالبرق بين الصفوف، وبدأ الفرس يتركون ساحة المعركة وفي هذه الأثناء زلق بالنعمان فرسه من كثرة الدماء التي سُفحت في أرض المعركة فصرع بين سنابك الخيل، وجاءه سهم في جنبه، فرآه أخوه نعيم فسجاه بثوب وأخذ الراية قبل أن تقع.

أخذ نعيم بن مقرن الراية وناولها إلى حذيفة بن اليمان فأخذها حذيفة وتقدم الصفوف حيث كان النعمان، ولما علم المغيرة باستشهاد النعمان قال: "اكتموا مُصاب أميركم حتى تنتظر ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن الناس". ولما أظلم الليل انهزم الفرس ومما زاد خسارة هزيمتهم أنهم هربوا دون قصد فوقعوا في وادٍ دونهم فكان واحد منهم يقع فيقع معه وعليه ستة بعضهم على بعض، وجعل حسك الحديد يعقرهم، فمات في هذه المعركة التي دامت من الزوال حتى أول الليل مائة ألف أو يزيد، قتل في الوادي وحده ثمانون ألفاً.

عندها هرب الفيرزان، علم القعقاع به، فتبعه هو ونعيم بن مقرن فأدركاه في ثنية همدان في وادٍ ضيق فإذا بقافلة كبيرة من بغال وحمير محملة عسلاً ذاهبة إلى يزدجرد فعرقلت القافلة تقدم الفيرزان ولم يجد طريقاً، فنزل عن دابته وصعد الجبل علّه يختفي، فتبعه القعقاع راجلاً فأدركه فقتله. فقيل بعدها: "إن الله جنوداً من عسل" واستاق الفارسان البطلان العسل إلى جند المسلمين، وبعدها سميت "ثنية همدان" "ثنية العسل".

جاء معقل بن يسار لما لمح النعمان انزلق به فرسه وأصابه سهم وسقط في أرض المعركة، جاءه بقليل من الماء، وغسل عن وجهه التراب، فقال النعمان: من أنت؟ قال: معقل بن يسار. قال: ما فعل الناس؟ قال: فتح الله عليهم. قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر، وفاضت روحه - رضي الله عنه - ورحمه.

كأنها إشارة أن اكتبوا إلى عمر أن الذي اخترته لإحراز النصر قد أحرزه، والذي قلت عنه أنه أول الأُسنة لم يخب ظنك فيه وقد كان أول الأُسنة، وها هو ذا أول شهيد في نهاوند.

تم النصر من الله لجند الله فجعلوا يسألون: أين أميرنا؟ أين النعمان بن مقرن؟ فقال لهم أخوه معقل: "هذا أميركم قد أقر الله عينيه بالفتح وختم له بالشهادة". فحزن عليه الجميع واحتسبوه عند الله، وبايعوا حذيفة بن اليمان ودخلوا نهاوند، وتابع القعقاع بن عمرو السير حتى دخل همدان.

أتى البشير بالفتح إلى عمر وكان "طريف بن سهم" فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام وأذل به الكفر وأهله.

فحمد عمر الله - عز وجل - ثم قال: النعمان بعثك؟ فقال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين، فبكى عمر واسترجع وقال: ومن غير النعمان؟ قال طريف: فلان وفلان، حتى عدّ له ناساً كثيراً، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم، فبكى عمر وقال: لا يضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم.

صعد عمر المنبر، ونعى الشهيد الحبيب واصفاً رجولته، فضج الحاضرون بالبكاء حتى ضجت جنبات المسجد معهم أسفاً على البدر الأفل والنسر الذبيح.

لقد تم النصر للمسلمين في نهاوند، ولكن مصرع النعمان نسج سحابة مظلمة فوق العيون.

لقد بكاه الجند المسلم في فارس، وبكاه المسلمون في المدينة أمرّ بكاء.

ولكن مما يواسي النفس ويعلل الروح أن النعمان انتقل من هذه الحياة أكرم انتقال، انتقل إلى روضة الشهداء في جنة الله، وإلى قمة الخلود في سجل التاريخ.

وقفات من معركة نهاوند:

هذه نهاوند وهذا هو بطلها ولنا مع هذه المعركة بعض الوقفات:

أولاً: سميت معركة نهاوند بـ"فتح الفتوح"؛ لأنه لم يعد للفرس بعدها اجتماع، فقد شنت النعمان شملهم وفرق جمعهم ومزق دولتهم، وسمح عمر بن الخطاب بعد هذه المعركة لجنده بالانسياح في مملكة يزدجرد إذ كان يخشى عليهم الانسياح قبلها، فكما أن معركة القادسية فتحت أبواب فارس للمسلمين، فلا عجب إذا أطلق المؤرخون على معركة نهاوند "فتح الفتوح".

ثانياً: هنيئاً للنعمان بن مقرن المزني - رضي الله عنه -، فقد حفظ له التاريخ جهاده تحت لواء الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وموقفه الرائع في حروب أهل الردة، وجهاده المشرف تحت لواء خالد بن الوليد

وسعد بن أبي وقاص، وبلاءه المجيد في حروب الأهواز، وأخيراً تَوَجَّ نهاية حياته بفتح نهاوند من أعظم وأكبر مدن فارس حينذاك، وتَوَجَّ حياته بنهاية مشرفة هي أكبر من فتح نهاوند ومن كل فتح، إنها الشهادة في سبيل الله.

نعم الشهادة في سبيل الله، رتبة عظيمة ومنزلة جسيمة، لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، ولا ينالها إلا من سبق له القدر بالفوز المقيم، وهي الرتبة الثالثة من مقام النبوة كما قال تعالى: **{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}** [سورة النساء].

فهم أحياء عند ربهم يرزقون، ولا أجمل من أن أنقل لك نتقاً من كلام ابن النحاس - رحمه الله - تعالى في كتابه مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق: عندما تحدث عن منزلة الشهيد فقال - رحمه الله -: "فإن مما يجب اعتقاده أن الأجل محتوم، وأن الرزق مقسوم، وأن ما أخطأ لا يصيب، وأن سهم المنية لكل أحد مصيب، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الري الأعظم في شرب كؤوس الحنوف، وأن من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار، وأن الشهداء عند الله من الأحياء، وأن أرواحهم في جوف طير خضر تنبؤاً من الجنة حيث نشاء، وأن الشهيد تغفر له جميع ذنوبه وخطاياها، وأنه يشفع في سبعين من أهل بيته ومن والاه، وأنه يأمن يوم القيامة من الفرع الأكبر، وأنه لا يجد كرب الموت ولا هول المحشر، وأنه لا يحس ألم القتل إلا كمس القرصة، وكم للموت على الفراش من سكرة وغصة، وأن الطاعم النائم في الجهاد أفضل من الصائم القائم في سواه، ومن حرس في سبيل الله لا تبصر النار عيناه، وأن المرابط يجري له أجر عمله إلى يوم القيامة، وأن ألف يوم لا تساوي يوماً من أيامه، وأن رباط يوم خير من الدنيا وما فيها، وأنه يؤمن من فتنة القبر وعذابه، وأن الله يكرمه يوم القيامة بحسن مآبه، فواعبياً كيف أن ذروة السنام قد درست آثاره فلا ترى، وطمست أنواره بين الورى، وأعتم ليله بعد أن كان مُقَمَّراً، وأظلم نهاره بعد أن كان نيراً، وذوى غصنه بعد أن كان مورقاً، وانطفأ حسنه بعد أن كان مشرقاً، وقفلت أبوابه فلا تطرق، وأهملت أسبابه فلا ترمق، وصفنت خيوله فلا تركض، وربطت أسوده فلا تنهض، وامتدت أيدي الكفرة الأذلاء إلى المسلمين فلا تقبض، وأغمدت السيوف من أعداء المسلمين إخلاداً إلى حياة الدعة والأمان، وخرس لسان النفير إليهم فصاح نفيرهم في أهل الإيمان، ونامت عروس الشهادة إذ عدمت الخاطبين، وأهمل الناس الجهاد كأنهم ليسوا به مخاطبين، فلا نجد إلا من طوى بساط نشاطه عنه، أو تركه جزعاً من الموت وهلعاً، أو جهل ما فيه من الثواب الجزيل ورضي بالحياة الدنيا من الآخرة، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

هؤلاء الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله قد أمنوا من عظيم الأهوال والكربات، وسكنوا في أجل المحال في أعلى الغرفات، وكرعوا من النعيم أكواباً، وادرعوا من التنعيم أثواباً، ومُتَعَوَّا بجنان الفردوس مستقراً ومآباً وتمتعوا بحور عين كواعب أتراباً، أرواحهم في جوف طير خضر تجول في الجنان تأكل وتشرب، وتأوي إلى قناديل معلقة في عرش الرحمن، يتمنون الرجوع إلى هذه الدار ليقتلوا في سبيل الله مرات ومرات، لما بهرهم من ثواب الله الجزيل، فما أقبح العجز عن انتهاز مثل هذه الفرص، وما أنجح الاحتراز بالجهاد عن مقاساة تلك الغصص، وليت شعري بأي وجه يلقي الله غداً من فر اليوم من أعدائه، وماطله بتسليم نفسه بعد

عقد شرائه، ودعاه إلى جنته ففر وزهد في لقاءه، وبأي عذر يعتذر بين يديه من هو عن سبيله ناكب، وعمًا رغبه فيه من الفوز العظيم راغب، قال - صلى الله عليه وسلم - : ((إن للشهيد عند ربه سبع خصال، أن يغفر له في أول دفعة في دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلية الإيمان، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)). انتهى كلامه - رحمه الله - .

هل من يموت بميدان الجهاد كما	موت البهائم في الأعطان تنتحر
كلا وربي فلا تشبيه بينهمو	قد قالها خالد إذ كان يحتضر
أهل الشهادة في الآثار قد أمنوا	من فتنة وابتلاءات إذا قُبروا
ويوم ينفخ صور ليس يزعجهم	والناس قائمة من هولاه ذُعروا
وما سوى الدين من ذنب وسيئة	على الشهيد فعند الله مغتفر
أرواحهم في على الجنات سارحة	تأوي القناديل تحت العرش تزدهر
وحيث شاءت من الجنات تحملها	طير مغردة ألوانها خضر
إن الشهيد شفيع في قرابته	سبعين منهم كما في مسند حصر
والترمذي أتى باللفظ في سنن	وفي كتاب أبي داود معتبر
مع ابن ماجة والمقدم ناقله	في ضمن ست خصال ساقها الخبر
ما كل من طلب العلياء نائلها	إن الشهادة مجد دونه حفر
وقد تردد في الأمثال من زمن	لا يبلغ المجد حتى يلحق الصبر
ربي اشترى أنفساً ممن وجود بها	نعم المبيع ورب العرش ما خسروا

ثالثاً: لقد ربح النعمان معركة نهاوند وإن خسر جسده؛ لذلك خلده التاريخ، ولو خسر هذه المعركة من أجل الحفاظ على جسده لأهمله التاريخ، فما أحرانا أن نتعلم هذا الدرس من هذا القائد العظيم، قال الله تعالى: **{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا *دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [سورة النساء: 95-96].

رابعاً: عظمة المسلمين ليست في اللباس والخدم والقصور وإنما في التواضع وبساطة الدنيا، تأمل هذا الموقف من الهرمزان عندما رأى عمر - رضي الله عنه - .

أدخل الهرمزان على عمر وكان عمر نائماً في ميمنة المسجد متوسداً برنسه، رأى الهرمزان هذا الإنسان الوحيد نائماً في المسجد فقال: أين عمر؟ قالوا: هو ذا. فقال: أين حرسه وحجابه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب. قال: فينبغي له أن يكون نبياً. قالوا: بل يعمل عمل الأنبياء. استيقظ عمر واستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان وقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم، فتأمله وتأمل ما عليه من الثياب ثم قال: "أعوذ بالله من الناس وأستعين بالله، الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم ولا تبطنركم الدنيا فإنها غرارة".

قال الله تعالى: **{وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ}** [(١١) سورة الأنبياء] وقال تعالى: **{كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِينٌ* كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}** [(٢٥-٢٨) سورة الدخان]. وقال تعالى: **{وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}** [(٥) سورة القصص].

خامساً: أتدرون بماذا ننتصر على أعدائنا؟ ننتصر عليهم بعشقنا للموت كما يعشق الكفار الحياة. تأمل موقف الهرمزان عندما واجه الموت طلب الأسر، وجبن عن أن يموت كما يموت الأبطال نصره لدينهم، وأمجاد أمتهم، بينما كان البراء يطلب الموت في أشرق صورة وهي الشهادة في سبيل الله تعالى؛ لينهزم الأعداء وينتصر المسلمون وذلك عندما دعا "اللهم اهزمهم واستشهدني".

وهذا عمر الفاروق يرشح أحد أبطال المسلمين وهو النعمان بن مقرن لقيادة جيش المسلمين فيصفه بأنه أول من تصله أسنة الأعداء فيصدق حدسه فيه، فيكون النعمان من أوائل شهداء نهاوند وهو يقول كلمات خالدة خلود الزمن: "اللهم اعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، أمّنوا يرحمكم الله".

أما قائد الفرس الفيرزان لما رأى هزيمة جيشه فر هارباً لينجو بنفسه ويترك جيشه يلقي مصيره وحتفه على يد المسلمين الأشاوس، لكنه مع ذلك لم ينجو من سيوف المسلمين فذاق طعم الموت والقتل في أسوء صورة وهو فار هارب على يد القعقاع كما ذاقه جيشه.

وهذا المغيرة بن شعبه يقول بعدما رأى الزحف يوم نهاوند: "والله ما علمت من المسلمين أحداً يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يقتل أو يظفر، فحملنا حملة واحدة، وثبتوا لنا، فما كنا نسمع إلا وقع الحديد حتى أصيب المسلمون بمصائب كبيرة، فلما رأوا صبرنا وأنا لا نبرح ساحة القتال انهزموا".

سادساً: عزة المسلم في إيمانه بدينه العظيم لا بحطام الدنيا وزخرفها كما هو الحال عند الكفار الذين يرون عزتهم في حطام الدنيا وزخرفها.

عندما ذهب المغيرة بن شعبه بمنظر رهيب وشعر مسترسل طويل، استشار "بندار" أصحابه بأي هيئة نأذن له؟ هل بشارتنا وملكنا وفخامتنا؟ حتى نرهبهم بقوة ملكنا، أم بالتقشف حتى يزهوا بنا ولا يطمعوا في ملكنا؟ فأشاروا عليه: بل بأفضل ما يكون من الشارة والعدة.

فتهبؤوا له بأفخر الأثاث والثياب وأجلسوا "بندار" على سرير من الذهب وعلى رأسه تاج نفيس. لم يكثرث المغيرة بما رأى بل حطم معنويات الفرس وشعر "بندار" أن المغيرة بدأ يحطم من معنويات جنده؛ لأنه بدأ يُظهر عزته الذي هذبه بها الإسلام وظهرت سوء أخلاقيات الفرس.

فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغير ديننا أدلنا الله، قال الله تعالى: **{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** [(١٣٩) سورة آل عمران].

إنه الإسلام الذي جعل المسلمين يفتحون خزائن العلم والحكمة والمعرفة، إنه الإسلام الذي أذاق ملوك الفرس وجبابرة الرومان وطغاة العالم الذل والهوان عندما أرادوا أن يناطحوا صخرته، فإذا ما حاسبنا أنفسنا اليوم وما نحن فيه من مهانة وتأخر وضعف، نجد أننا قد تركنا الإسلام في العبادات والمعاملات والأخلاق، ونسينا

أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وقائد نهاوند واليرموك والقادسية، أولئك العظماء الذين نباهي بهم، وفتحوا ما فتحوا ما كانت عظمتهم إلا بفضل الإسلام وبعقيدة الإسلام **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [سورة آل عمران].

سابعاً: إن الأمة اليوم بحاجة إلى مثل بيوت آل مقرن، فكان فيهم العالم والداعية والمجاهد. كم هو نعمة أن يرزق الرجل بأولاد كلهم جنود للإسلام ويخدمون هذا الدين، كل بحسب ما حباه الله من مواهب وقدرات وهذا سيكون له أثر على تغيير واقع الأمة.

وقد حفظ لنا التاريخ عدداً من البيوت كانت بيوت خير وبركة من ذلك:

أولاد العباس كانوا عشرة منهم: عبد الله والفضل ومكثر وقثم وعبيد الله وعبد الرحمن وغيرهم، ولا يعرف قبور إخوة تباعدت كما تباعدت قبورهم فهي ما بين: سمرقند واليمن وإفريقيا ومصر والحجاز والعراق والشام وكان الناس يستغربون من مجالس أولاد العباس فعبد الله: ترجمان القرآن، وأخوه عبيد الله: من كبار المنفقين المطعمين المتصدقين، وعبد الرحمن: مجاهد قتل في فتح إفريقيا.

والزبير بن العوام كان أولاده علماء ومجاهدون فأكرم به من بيت في الإسلام. ومعاذ ومعوذ ابني عفراء هما الذين قتلا أبا جهل.

ومن أسر الإسلام التي لها شأن في خدمة الدين: آل المهلب بالعراق، وآل منده، وآل نور الدين زنكي: أسرة مجاهدة بالموصل وما حوله، وآل قدامة، وآل تيمية.

والشيء بالشيء يذكر فوالد شيخ الإسلام عبد الحلیم بن عبد السلام كان عالماً جليلاً لكن لم يشتهر ذكره والسبب كما ذكر العليمي في الدارس في تاريخ المدارس أنه خرج بين الشمس والقمر فلماذا لم يذكر! ابنه شيخ الإسلام ابن تيمية ووالده المجد أبو البركات ابن تيمية، وهما من هما في غناءهما عن الإسلام والمسلمين! فلماذا لم يشتهر أمر عبد الحلیم وإلا فهو من العلماء.

ومن بيوت الإسلام: بيت آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب: أولاده حسن وحسين وعبد الله وعلي وقد عرفوا بالعلم والدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد يكون الإنسان عالماً كبيراً وحافظاً قديراً يبحث عن الولد فلا يعطيه الله إياه بل يعوضه بانتشار كتبه، و لهذا يؤثر عن الحافظ ابن حجر - رحمه الله - قوله: "لا تجتمع الذرية والتصنيف لعالم" وقد كان - رحمه الله - يبحث عن الولد ويطلبه وتزوج وتسرى من أجل طلبه، ولما ولد للحافظ ولد بعد عدد من البنات صنف له كتابه "بلوغ المرام" ليحفظه وليكون عالماً حافظاً، فأين هو ابنه؟ لا يعرف بحفظ ولا علم ولا مشاركة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والعجيب أن الحافظ - رحمه الله - أصبح ينسب إليه من جهة أحد أسباطه من عقب بناته، فيقال: سبط ابن حجر! وهو الذي كان يبحث عن الولد الذكر.

وهذا يذكرنا بسبط ابن الجوزي حيث ينتسب إليه من جهة إحدى بناته وكان مصنفاً، بينما كان أولاد ابن الجوزي يذيقونه الحسرات، فكان أحدهم يشي به عند السلطان! حتى أنه كان يبحث عن غفلة أبيه ليبيع كتبه!

والآخر اسمه يوسف وقد نُقل عن ابن الجوزي أنه كان لا يستطيع قراءة سورة يوسف لما في قلبه من وَجْدٍ على ولده.

ونقل -أيضاً- عن أحد التابعين أن له أربعة أولاد كل منهم على طريقة فأحدهم: شيوعي والآخر خارجي والثالث سني والرابع مرجيء، هذا وهم أولاد رجل و امرأة عاشوا تحت سقف واحد فله الحجة البالغة. صدق عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عندما قال: "إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن".

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..